الفصل الأول:

ظلال المخيم

أواسط الثمانينيات. في قلب الأراضي المحتلة، حيث يختلط صخب البحر بوجع الأرض، وفي ساحة قطاع غزة المضطربة، ينهض مخيم البريج وسط القطاع ككفٍّ مفتوحٍ على الريح، كمن يعرض جراحه للعالم ثم يطويها بين ضلوعه في صمت.

هدوءٌ ثقيل يخيّم على المكان؛ صمتٌ يوهم الغريب بأنه طبيعي، لكنه في الحقيقة صمتٌ يتنفس على مهل، يشبه صدرًا مكتومًا يخشى أن يعلو أو يهبط أكثر من اللازم. كل شقّ في جدار، كل لوح صفيح مائل، بدا كعينٍ نصف مغمضة تترقب صرخةً قريبة لم تُولد بعد. الجدران نفسها تتصدّع صامتةً كمن يحمل سرًّا لا يبوح به، فيما الناس يمشون بخطوات حذرة، كأنهم يسيرون على أطراف أصواتهم، يخشون أن تفضحهم حتى وقع نعالهم على التراب.

عند المدخل الرئيسي، حيث يشقّ الشارع الحيوي المخيم رابطًا بين جنوب القطاع وشماله، ينتصب أضخم موقع عسكري إسرائيلي. لم يكن مجرد ثكنة؛ بل فمٌ من حديد ابتلع المدخل وحوّله إلى بوابة مراقبة دائمة. التفّت حوله أسوارٌ متعاقبة وأسلاكٌ شائكة، كأنيابٍ تنتظر أن تنهش، وفي قلبه يعلو برجٌ معدني شاهق. أعلاه تتراءى نظارات المراقبة كأنها عيونٌ زجاجية لا تعرف النوم، ولا تعرف الرحمة.

من هناك، من ذاك البرج، يمكن للناظر أن يكشف كل زاوية من المخيم؛ كأنما كاميرا عملاقة تحصي أنفاس الناس، تحصي خطواتهم، حتى نظراتهم المبتورة.

أبراج وأسوار تغطي مساحة تكاد تبتلع ربع البريج، لتظل العيون مرهونة لعدسات لا ترمش، وكأن المخيم كله صفحة مفتوحة تحت أصابع المحتل، يقرأها وقتما شاء.

في ساعات النهار كانت الدوريات الراجلة، لا يزيد أفرادها عن ثلاثة أو أربعة جنود، تجوب الأزقّة بخطوات محسوبة. أحذيتهم تُحدث إيقاعًا معدنيًا فوق التراب، إيقاعًا كئيبًا يجرّ خلفه ظلالًا من التوتر، وبنادقهم تتأرجح على أكتافهم كما لو كانت عيونًا إضافية، لا سلاحًا وحسب.

ألف الناس منظرهم، أو هكذا ظنوا، لكن وقع الأقدام ظلّ أشبه بجرس ثقيل يقرع في الصدور، يذكّرهم في كل مرة بأن الهدوء ليس إلا قناعًا هشًّا. كل مرورٍ لهم كان منعطفًا جديدًا في ذاكرة المخيم: جرحًا صغيرًا يُضاف إلى سجلٍّ طويل من المنعطفات المؤلمة التي لم تندمل يومًا.

قبل خمس سنوات فقط، كان اسم بيروت يتردّد في كل بيت من بيوت البريج. العاصمة البعيدة بدت أقرب من الجار، حين شنّ العدو حملته الأوسع لطرد المقاومة الفلسطينية من لبنان. ثلاثة أشهر كاملة من الحصار، أطبقت الدبابات من البرّ، والزوارق من البحر، فيما كانت السماء تمطر قذائف لا تعرف التوقف.

في المخيم، كان الناس يتابعون الأخبار عبر الراديو، لكن كل طلقةٍ هناك كانت ترتد في ذاكرة هنا. كأن الصدى اخترق الحدود ليذكّرهم بأن المعركة واحدة مهما تباعدت الساحات. كلما سقط مبنى في بيروت، ارتعشت جدران صفيح هنا. كلما صرخت أمّ هناك، سالت دمعة أمّ هنا.

انتهى الحصار بارتباكٍ في صفوف العدو، لكنه حمل معه جلاءً شبه كامل للفصائل الفلسطينية إلى تونس وبعض العواصم العربية الأخرى.

وفي الفراغ الذي خلّفه الغياب، وقع الجرح الأعمق: مجزرة صبرا وشاتيلا. الكارثة التي لا تمحوها ذاكرة ولا يغفرها تاريخ. كانت صور الضحايا – أطفال ونساء يغطون بدمائهم أزقة المخيم – تصل كطعنة متكررة في صدر كل لاجئ في غزة. لم يعد الناس يرون المشهد مجرد مأساة بعيدة، بل إنذارًا شخصيًا: ما حدث هناك قد يحدث هنا في أي لحظة.

تلتها أحداث أخرى أقل وقعًا لكنها تركت أثرها في الوعي الجمعي؛ اجتياحات محدودة، حملات اعتقال، إغلاقات متكررة. ومع كل حدث، راحت يد الاحتلال تشدّ قبضتها أكثر فأكثر على غزة. وُضعت إدارة القطاع مباشرة تحت قيادة الجيش، وبدأت سياسة التضييق المتدرج: مراقبة التحركات، تشديد القبضة، ومطاردة كل همسة مقاومة، كأنهم يطاردون حتى الحلم.

ومع ذلك، لم تكن غزة لتسكت. ظلّت شرارات صغيرة تنفلت من بين الأصابع، تستهدف دورية هنا، أو موقعًا هناك، كنبضٍ يرفض أن يتوقف. بدا المشهد العام وكأنه يغطيه طلاء من الهدوء والاستكانة، كأن غزة تستعد لالتقاط أنفاسها بعد سنوات من اللهيب. لكن هذا الهدوء لم يكن مطلقًا، ولا كان آمنًا.

بين الحين والآخر كانت عمليات متفرقة تومض كشرارات في العتمة، غالبًا ما جاءت بتخطيط من القيادة الفلسطينية في الخارج، تحديدًا من تونس حيث أعادت الفصائل ترتيب صفوفها. ذلك التباين بين السكون والشرارة أبقى المخيم على قيد التوتر: فلا الناس صدّقوا الهدوء، ولا العدو اطمأنّ إلى سكونه.

ورغم الغياب التنظيمي، لم يَخْلُ المشهد من أبطال فرادى: شبان اندفعوا

بعفوية نحو الفعل الفدائي، بعيدًا عن أي راية رسمية. كانوا يخطّون بدمائهم ارتجالًا ما لم تستطع الخطط المرسومة أن تحققه. أحدهم يحمل حجرًا صغيرًا، آخر يخبئ زجاجة حارقة، وثالث يكتب شعارات على جدارٍ سرعان ما يُطلى بالطلاء الأبيض. كل فعل صغير كان بمثابة مقاومة، وكل مقاومة كانت بمثابة حياة.

وفي قلب تلك الأيام ظلّت الفصائل حاضرة: كانت حركة فتح رائدة الحراك، وإلى جانبها الجبهة الشعبية وتنظيمات أخرى رفعت شعاراتها على الجدران. كثير من اللاجئين وجدوا في هذه الفصائل بعض الأمل في الخلاص، فانضموا إليها سرًا، وكأن الانتساب بطاقة عبور إلى مستقبل مختلف، أو وعدٌ بأن لا تبقى حياتهم مرهونةً للمخيم وحده.

لم يكن مخيم البريج مختلفًا عن بقية المخيمات الفلسطينية التي ضمّت آلاف المشرّدين بعد نكبة ١٩٤٨. تنوّعت مشارب الناس: هذا من قرية ساحلية فقدت شاطئها، وذاك من بلدة جبلية فقدت كرومها، وثالث من مدينة عامرة فقدت شوارعها. اختلاف الأصول لم يمنعهم من الانصهار في جبهة واحدة أمام العدو المشترك.

ولأن المخيم كان يغلي بهذه الوحدة، كان العدو يضاعف المراقبة. دوريات إسرائيلية تجوب الأزقّة يوميًا، عيونٌ تعدّ الأنفاس، وجنودٌ نادرًا ما يمرّون دون أن يتركوا وراءهم مضايقة أو تفتيشًا أو هجومًا عابرًا يثقل الحياة أكثر. وهكذا ظلّ المخيم عالقًا بين سكونٍ مشوب بالتوتر، وشرارةٍ تنتظر لحظة الانفجار.

***

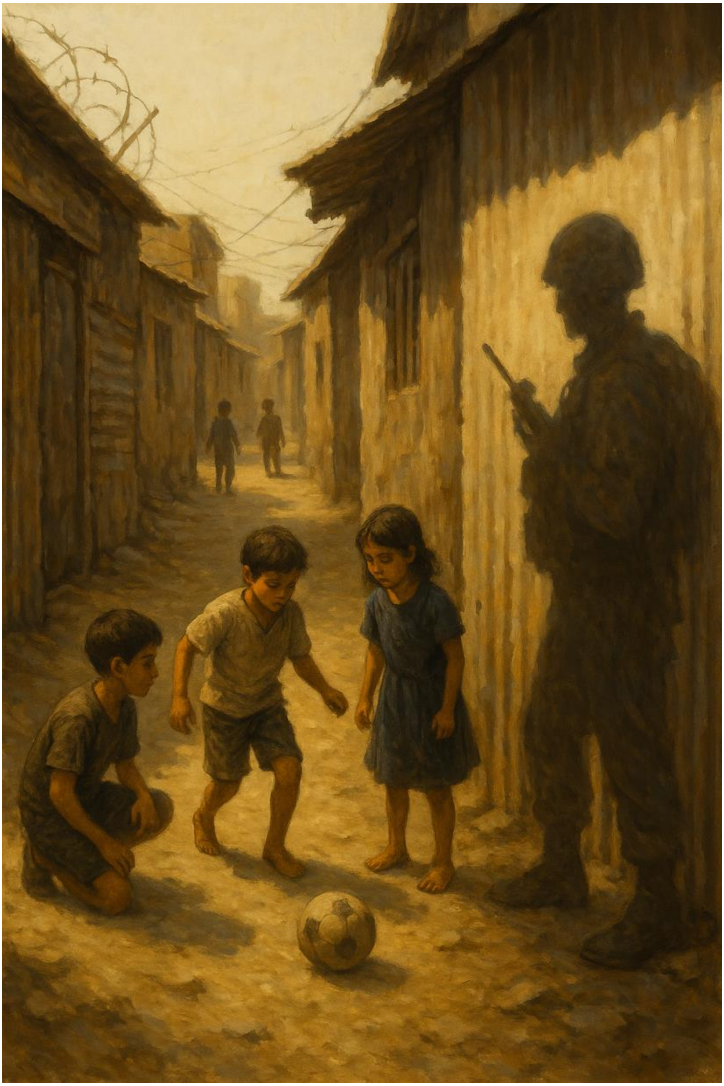

"كان المخيم أشبه بمتاهة من الأزقة الضيقة، يختبئ في كل زاوية ظلّ جندي، أو عين تترقب".